

حريق القرية

للاستاذ السيد حسن قرون

ولكنه لم يفعل ، فقلت في نفسي : الشيخ
خواجة ليس من قصصه ، وأن له أن
يسخر ، وعلى حين غفلة علا صوت استغاثة
وصراخ في ناحية من نواحي القرية ، غيب
الناس مذمورين متجهين نحو الصوت ،
وعملت بالقيام لأرى ما حدث ولكنه
نشب لي دالا في سحرة : الأمر لا يبدو
أن يكون لونه (مهني) قد أناه الصرخ ،
وسياتيت بالأخبار من لم تروه ، وسكت
قليلا ، ثم رجع بعض الذين خفوا لإثارة
الاستغراب ، سمعهم يتندرون ويضحكون ،
لأن مهني حازه عفريته ، فلبس سمع حديثهم
صاح : « انه يقصر أجله ، ربما يرجعنا منه
مصلحة ، والله على البلاد هذا الولد » فقلت له :
ما هذا شيخ خواجة ، تدعو على الناس
بالوفا ؟

وانصرف إلى نظرة طويلة تبيتها على سوء
القبالة ، خافت ، وأردت أن أداعبه ، فقلت :
كأن بينك وبين مهني عداوة ، وكأنني بهذا
الكلام است منه جانباً موجعا ، فصاح

كانت الندوة عامرة بأصحاب الآراء
الحرة ، وكان الجدال شديداً حول تحديد
النسل ، وضيق وادي النيل عن تهمة العيش
الكريم لسكانه حين قص علينا أحد
الأصدقاء ، هذه القصة التي أقسم أنها وقعت
في إحدى قرى الصعيد ، ولا يزال كثيرون
جدا من الفلاحين يذكرونها ولا يلبسونها :
فعرابها ولما تركت في النفوس من أثر
المر . قال :

كنت فيما مضى أحب القرية جبايتي
في الرحيل إليها من حين إلى حين ، وكنت
أحب بحالة الشيوخ ولا سيما الشيخ
خواجة الذي عرفت فيه الطيبة والعكاشة ،
وكان يطرفني بتقصص مضحكة ، وكنت
أصغي إليه بسماع ، وإن كانت قصصه
كلها تدور حول الغنى والفقر ، والشجاعة
والكرم إلا أنني كنت أجد فيها ما يروقني
ويشوقني .

وذات ليلة جلست معه ، وانتظرت منه
حديثاً أو قصة أو خبراً من أخبار القرية ،

وانطلق يروي قصة العداوة بكل ما يملك من أدوات البيان ، يتحدث بلسانه وعينه ويديه ، ويهز رأسه ، ويقب أحيانا ما يحملني أعطيه سمى ونظري وقلبي أيضا ، وابتدأ حديثه هكذا :

عداوتي معه من قبل أن تلده أمه : لا تعترض : نعم عداوتي معه من قبل أن يرى الدنيا ، فقد كان مولده تدير شر لي ولأهلي ، وفقدت روني وشقيقي في سبيله . لقد كانت أمه شيطانة خربت الديار ، ويتمت الأطفال ، وروعت الناس من أجل سواد عييه .

لقد شهدت ليلة : واج أبيه بأمه ، كانت ليلة عظيمة ، وكان أبوه - الله رحمه - رجلا صالحا كريما شجاعا اتخذه شيخا لحصنا ، وكانت زوجته الشثومة فتاة سمراء جميلة ، ويقول أهلها إنها مؤدبة ! وتدير أحسن بيت ، وكان شيخ البلد فرحا بها يتحدث عنها أمنا ولا يرى في ذلك عيبا ، وكنا بحامله فلا نقاطعه ، ونحن يمضي نقول عنه إنه عظيم في كل شيء إلا ذكر امرأته .

ولكن هذه السمراء المحبوبة لم يرزقها الله ولدا يسر شيخ البلد ، وشمرت المرأة بخرج مركزها وشمرت بمعاذاة الأيام لها ، وأحست برعزة حياتها عند الشيخ ، وكما كرت الأيام ازدادت أرقا وقلقا ، حتى نحل

جسمها ، وغاص ماء الجبال من وجهها ، وملت العمل في بيتها وكرحت الدنيا . . . كانت في أول أمرها محجوبة لا يراها إنسان ، ولكنها على مر الأيام أصبحت لا تحفل بالناس ، وراها في شجار مع النساء . وكان يبنظها ويهيجها أن تسمع من آرائها الدعاء لها بالولد الصالح ، والذرية النافعة ، وتظن - وبعض الظن إنهم - أنهم بعض بها ، ويحسبون منها ، وتمنت لو أن الله باعد بينها وبينهم ، وحفظها من مكرهم ، ولكن من أين لها هذا والبيت مزدحم بقريبات زوجها وقرباتها ، فكانت في معارك - امية معهم - حتى جمعت البيت جحبا ، والشيخ راض بما قسم الله له .

والرجل في القرية كما تعلم لا يهجمه من الزواج إلا « الخلقة » ، وقبل أن تمضي شهر على زواجه يفكر في الوارث ولا يرى المرأة إلا معملا للتفريح ، فإن خافها الحظ ، ولم تنجب طلة لها غير آسف ولا نادم ، أو زوج أخرى لهذا الغرض . وأخذ أصدقاء شيخ البلد يتروونه بالبناء على غيرها ، والرجل يتمنع آملا في الولد منها .

ونسمع أم مهني همسا يدور حولها ، فتعثر بها لأوهام ، ونمصف بها الأحزان ، وتبكي البلبا ونهارها ، وكثيرا ما تخلو إلى نفسها فتتحدث معها حديثا فيه من النحيب

وأخرج علبه الدخان ، وصنع دخينة أشعلها
والتقى عود الثقاب على الأرض قائلا والدخان
يتصاعد مع الهواء في تراقص : «أى طيب ؟
صدقنى أنى لا أحب الأطباء ، ولا الطب ولو
جلب الشفاء ، وعلى فكرة لم يكن الطب
معروفا على عهدنا ، ولو كان معروفا لنجوت
أنا من النجس ومن مصائب أم مهى ، لقد
كان طبيبها جبارا هبط من السماء فجأة
لشفيها ، ويثلينا»

فقلت كما يقول كتاب كلبيلة ودمنة
وكيف كان ذلك ؟ ولم يقل زعموا ، ولو
عرفها ما قلنا ، لأنه يحكى قصة شاهدها
وذاق مرارعا ، ولا تزال آثارها الوخيمة
تلاحقه وتضنيه . ولكنه قال وهو يلث
من شدة النبط

«لأأدرى كيف ظهر هذا الرجل ، إنه
ساحر من بلاد الدكورو بسميه الشيخ
الدكورى ، أعرفه من بعيد ، أعرفه
شيطانا يئلب الشياطين ، يستخدمهم ،
ويوحى إليهم ، وفوق ذلك فهو ساحر قدير ،
ما أن سمعت به أم مهى حتى ركبها ألف
عقريت ، وانطلقت إليه نشوى كأنه
سيعطيها الولد بمجرد السلام عليه .. مسكينة
تستحق الرثاء ، وإن كنت أبتغضها من
قلبي ، وأعاقبها إلى يوم الدين . ماذا تصنع ؟
لقد عرفت عنه أنه يشقى المرضى ، ويطرده

أكثر مما فيه من التعبير ، ولولا فرحة
الشامتين لأعلنت زوجها بحقه في الزواج
عليها ، ولكنها ترتد بحفلة عند هذا الحاطر
الأسود .

وأخيرا لجأت إلى ما تلجأ إليه نساء
القرية ، فزارت قبور الصالحين تخطبها سبع
مرات من جهة إلى أخرى ونذهب إلى جبل
اشتهر بالكرامة لتتدحرج عليه ، وتعالجها
الداية علاجا عتيقا ، وتضرب الرمل ، وتقرأ
الكف ، وتقيم حفلات الزار ، وتعالى من
كل هذا ألما مبرحا ، وتعبا مضنيا ، وأمراضا
كثارا ولا تفيد من وراء ذلك شيئا ،
وضاقت عليها الأرض بما رحبت ، وغمت
الموت لترتاح من الأشجان والأسقام ،
ورانت عليها كآبة لا تستطيع دفعها ولو
تكلفت ؟ فلا تراها تنسم لأحد ، ولا تهش
لشيء . وكانت يحوارها امرأة — هى
أمها — لم تعرف دواءها ، وإن عرفت
دواءها ، وكم لفهما الليل بردائه الغدافي ،
وباتتا نعدان المنجوم ، وترقبان الصبح ،
والدموع تسيل من عيونهما منبهة . ولكن
الإنسان لا يئأس ما دام يحس بالأمل ،
ويشعر بالحياة ، وانتظرت الفرج ...

فقلت : أذهبت إلى الطبيب ؟ فزم
الشيخ خواجة شفتيه ، ثم أرخاها وقد
تنفس الصعداء واضطجع إلى الوراء ،

الجن الخبيث ، ويصلح بين الرء و زوجته ،
وهو يستطيع - لقدرته - أن يكتب كلمة
على اليد اليسرى فيعلمها الإنسان فيراها على اليد
اليمنى ، وله فى علاج العقيم شهرة واسعة .
لقد أشرفت الدنيا فى حياتها على حين غفلة ،
وخيل إليها أن كلمة منه تترك فى أحشائها
حينئذ يبعد إليها قلب زوجها قبل أن
يتحول ، ويبعد إليها جمالها وشبابها ،
وسينهب عنها الرض إلى غير رجعة ،
وفكرت فى الولد المأمول ، فأنجابت عنها
سحب الماضى ؛ وبدأ لها نجلها يسمى بين
يديها ويخرج صباحا إلى مكتب القرية ،
وبعد الظهر يسوق البقر والجاسوس إلى
خوض الماء ، ويذهب مع أبيه إلى الحقل ،
ويقدم إليها بده السكرينة با كورة التمح ،
ولها أن تنهى تراثها بكل ذلك

لا حول ولا قوة إلا بالله ما رأيت
علاجاً مثله فى حياتى ، ولا سمع غيرى بذلك
العلاج المدمر ، مصيبة والله . العلاج
يا سيدى : إحراق القرية وقت صلاة الجمعة
فى النصف الأول من الشهر العربى . ومن
ذلك اليوم أخذت أم مهى تعمل على تنفيذ
العلاج ، وتعد العدة وتسكن ممرحها ،
ودبرت الخطة ، وأقدمت على فعلتها من غير
وانزع من ضمير ، ولا زاجر من دين

وانضطرب جسم الشيخ خواجه عند
ذلك ، وجعلت عيناه ، وتقلصت شفقاته ،
وأشار يديه كليهما ، وصاح فى عصبية :
« اللهم لها ! لقد اختارت يوما عاصفا ، وقد
كان المصيف غائطا يصهر الرؤوس ، وقد
أقبل الدس رافقت إلى المساجد حتى إذا
خلت الدور من الرجال وسكنت الطرق من
الحركة خرجت الجريمة تسعى ، وكان منزله
شمال القرية ، ومنزلها خارجها وأشعلت النار
فيه وولت هاربة

ارتفعت النار مرة واحدة ، وامتد

جالت كل هذه الحواطر فى نفس تلك
المرأة الشؤومة ، فالتفتت من مكانها فتاة
مسنية قوية ، باصرة فتية ، ودفعت الباب
بقوة ، وهروا إلى أمها فى بلسامة الزهرة
الأرجة تهمس فى أذنها أنه قد حضر الشيخ
الذ كوروى ، وارتعشت بد المعجوز وهى
تتمها على فيها المفتوح ، وصاحت : أحقا
حضر ؟ لقد سمعت لك الدنيا يابتنى ، وأن
لما أن تستريح ، اكتمى أمرك عن جميع
الناس حتى زوجك وتم الانصال بين

دائرة حمراء، وأنجلت الكارثة بعد أيام عصية
عن خسائر في الأرواح والأموال، وخرجت
أنا معها سفير اليدين لا أملك رجلا ولا فرعا،
وفقدت شقيقي وبمض ألقائي .

أقربيد مني أن أحضر على هذا المنعوت
المشتوم ؟ الله رحمتا عنه ! فقلت : أحمل به
بعد هذه الحادثة ؟ فأجابني وهو يضع
الألفاظ مضغا عنيقا : نعم وليتها ماتت في
حملها به !

قال ذلك الصديق : وتركته وأويت إلى
فراشي ، فوقعت في ديمومة من الأحلام
الزعجة ما ألقاني منها إلا سياح الدبكة
وسوت المؤذن .

السيد صي فروع

الصراخ إلى أذني عنيقا نحيفا وأنا في الركعة
الأخيرة ودارت بي الأرض الفضاء .
وانفلت من صلاتي، فرأيت وياشر مارأيت..
لقد صار منزلي شعلة من نار ، وهبت
النيران على المنازل المجاورة تؤزها أزا ،
واكتست النخيل ثيابا قانية، ولعبت الريح
العاتية لعبتها ، فتطاير الشرر ، واختلط
صوت الرجال بموسل النساء وصراخ
الأطفال ، ففقدت وعي ، فرأيت الناس
أسيحا تذهب ونحى في أيديهم الجرار
وأوعية الماء ، والماء لا يكفي ، ولم تكن
نعرف رجال الحريق

وتنقلت النار من الشمال إلى الجنوب

في سعار ونهم ، وخلعت في وسط القرية

أعلام النص الروبنة

تولتسوى

فه من القوم الشوامج في أدب هذه الدنيا قدته وحديثه

السيد سواز محمد الحبيب

كتاب في نيف وأربع مائة صفحة من القطع الكبير محلي بالصورة

أوفى دراسة في العربية لحياة هذا الفنان العظيم

تمته ٤٠ قرشا عدا أجرة البريد